تطبيقات

التمر واللغة وسلطة المعرفة

فى كليلة ودمنة:

مثل الغراب الذى أراد أن يدرج كالحجلة

النص ..

"قال الناسك: زعموا أن غراباً رأى حجلة تدرج، فأعجبته مشيتها، فطمع فى تعلمها، وراض نفسه فلم يقدر على إحكامها فانصرف إلى مشيته التى كان عليها فلم يحسن. فبقى حيران متردداً. لم يحسن ما طلب ولم يحسن لما كان فى يده الحفظ. وإنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك خليق، إن تركت لسانك وتكلفت علم مالا يشاكلك من كلام العبرانية، ألا تدركه وأن تنسى الذى كان فى يدك من غيره ؛ فإنه قد قيل: " يُعد جاهلاً من حاول من الأمور مالا يشبهه وليس من أهله، لم يدركه آباؤه ولا أجداده من قبل، ولا يعرفون به."

ثم قال الفيلسوف للملك: فالولاة، فى قلة تعاهدهم للرعية فى هذا وأشباهه ألوم وأسوأ تدبيراً، لأنّ تنقل الناس من بعض المنازل إلى بعض فيه صعوبة ومشقة شديدة.

ثم إن الأشياء فى ذلك تجرى على منازل حتى تنتهى إلى الخطر الجسيم من مضادة الملك فى ملكه" [1]

(١) ابن المقفع، عبد الله: **كليلة ودمنة**، ط٤. بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣، ص ص ٣٥٦-٣٥٨.

التحليل

تدخل هذه الحكاية فى باب (الناسك والضيف) الذى يدخل بدوره فى مجموعة حكايات (كليلة ودمنة) لابن المقفع، والتى تقع فى أربعة أبواب كاملة (١٣٢هـ/٧٥٠م). مازال الجدل محتدماً حول عروبة الكتاب وحقيقة دور بيدبا فيلسوف الهند وابن المقفع فى تأليفه. نستطيع - على سبيل التبسيط- أن نقنع بما ذهب إليه محمد رجب النجار وغيره من أن الحكايات التى وضعها بيدبا "لتهذيب" الملك دبشليم كانت مصدراً من المصادر التى اعتمد عليها ابن المقفع حين "وضع" كتابه "كليلة ودمنة" [١]على معنى أنها بذور أثمرت فى غير تربتها، وأنوية تطورت إلى قصص كاملة، مارس ابن المقفع فيها النقل والحذف والإضافة والإبداع.

يتكون المتن الحكائى لكتاب (كليلة ودمنة) من سبع عشرة قصة محورية، مستقلة، واثنتين وأربعين حكاية فرعية [٢]. قصة (الناسك والضيف) هى من أمثلة القصة المحورية، أما حكاية (الغراب والحجلة) فهى حكاية فرعية. وقد استخدم ابن المقفع تقنيتى الإطمار والتنضيد- أى القصة داخل القصة وتمايز القصص المحورية، على الترتيب [٣] - مع الإبقاء على قصة بيدبا ودبشليم بحيث تصبح القصة الإطار Frame Story فى الكتاب. هذا النسق الحكائى ظل اختيارياً مفضلاً لدى كثير من الكتاب فى مختلف الثقافات الإنسانية والنصوص الأدبية: فى (ألف ليلة

---

(١) محمد رجب النجار: "حكايات الحيوان فى التراث العربي." **عالم الفكر**، مجـ ٢٤، ع١، ٢، ١٩٩٥، ص ص ١٨٧- ٢١٢.
(٢) المرجع السابق.
(٣)المرجع السابق.

وليلة) وفى (الديكاميرون) لبوكاتشيو وفى (حكايات كانتربرى) لتشوسر وفى (أليس فى بلاد العجائب) للويس كارول وغيرها.

من ناحية أخرى، تنتمى حكاية (الغراب والحجلة) إلى جنس حكاية الحيوان الرمزية Beast Fable أو الأمثولة التى تنتمى بدورها إلى جنس أوسع من الأدب/ الخطاب الكنائى (Allegorical) الأمثولة هى نص أدبى قصير- شعرى أو نثرى- يشتمل على درس أخلاقى أو حقيقة أخلاقية ترد غالباً فى نهايته، وما قبل النهاية صراع بين حيوانات وطيور وربما نباتات وجمادات، تتخذ بعض خصائص وسمات البشر، بهدف التسلية والتعليم [1] . لا سبيل إلى حصر الأمثولات التى أنتجها الأدباء، تلك التى تواصلت من حكايات أيسوب Aesop وكتب الحكمة الخمسة Panchatantra للحكيم البراهمى بيدبا وكليلة ودمنة **وحكاية رينار** Reynard لمارى دى فرانس إلى أمثولات لافونتين وحكاية الراهبة فى **حكايات كانتربرى** وأمثولات جون جاى Gay وقصص هانزكريستيان أندرسون Anderson **ورحلات جليفر** لجوناثان سويفت **ومزرعة الحيوان** لجورج أورويل وديوان شوقى للأطفال **وقصائد نصار عبد الله للصغار والكبار** وأفلام والت ديزنى وتوم وجيري.. قائمة لا تنتهى لجنس أدبى عابر للغات والثقافات استطاع أن يتكيف مع كل البيئات وكل وسائل التلقى والاتصال حتى عصر الإنفوميديا.

ولقد فصّل الباحثون القول حول أوجه التشابه والاختلاف بين (كليلة

---

(١) قارن :

Wales, K. (1989). A Dictionary of Stylistics. London: Longman

ودمنة) و(ألف ليلة وليلة) وغايات ابن المقفع ومبررات وضع القصص على ألسنة البهائم. لكن علاقات القوة والهيمنة وتجليات الأيديولوجيا فى الحكايات ظلت بعيدة عن اهتمام الباحثين مع أن القصة الإطار مواجهة صريحة بين الأدب والسلطة، بين الكلمة والسيف، بين الحاكم والفيلسوف.

يبدأ باب (الناسك والضيف) بطلب الملك: "فأخبرنى عمن يدع عمله الذى يعرفه ويليق به، ويطلب سواه فلا يقدر عليه، فيرجع إلى الذى كان فى يده من عمله، فيفوته ويبقى حيران متردداً" (ص٣٥٧).هذا الطلب يشكل القضية التى تتناولها الحكاية/ الحكايات الفرعية فى الباب وهو مبرر السرد اللاحق وإطاره العام.

وفى رد فعل سريع مباشر، يروى بيدبا قصة "الناسك والضيف" التى تمثل فى آن واحد قصة فرعية بالنسبة إلى قصة دبشليم وبيدبا وقصة إطار بالنسبة إلى حكاية (الغراب والحجلة). فى قصة (الناسك والضيف) يضيق الأول بإلحاح الثانى على تقليد الآخرين، إذ يطمع فى نقل تمر بلاد الكرخ- وطن الناسك- إلى بلاده هو ويستحسن عبرانية الناسك فيطمع أن يتعلمها. عندها لا يجد الناسك بداً من أن يضرب مثل "الغراب والحجلة" زجراً للضيف وقمعاً لرغبته فى حيازة ما ليس له وفى اكتساب هوية ليس له ولا لأجداده بها عهد.

من اليسير أن نلاحظ اتجاه القوة/ الهيمنة فى علاقة الناسك والضيف، فالناسك مزود بنسكه ونفوذه الدينى وإجادته العبرانية وبما تتمتع به بلاده من تمر تحسد عليه. أما الضيف فهو فى مقام الحاجة والرجاء لا يحتمى إلا بما يوجبه الدين

من ضرورة الاحتفاء بالضيف. لكن ما يطلبه يتجاوز حدود إكرام الضيف، ويشتمل على كثير من المشقة إذا قرر الناسك أن يلبى رغبتيه. يأبى الناسك أن يجيب الضيف إلى ما طلب، لكنه من الذكاء والحكمة بحيث لا يترك لضيفه مجالاً للشك فى كرمه، فبدلاً من أن يتعلل بضيق وقته أو ضعف قوته أو انعدام رغبته، يسعى إلى إحداث تغيير معرفى من شأنه أن يقنع الضيف بخطأ الطلب لا بصعوبة التلبية. لقد نجح الناسك فى تمرير مقولة أيديولوجية من نفس فصيلة "القناعة كنز لا يفنى"، مقولة يستخدمها ذوو السلطة فى إقناع المهضومين والمحكومين بفضيلة الصمت والرضا، يستخدمها من يملك فى إقناع من لا يملك بالنعيم الذى ينتظره جزاء صبره وقناعته. فكيف تفعل حكاية الغراب والحجلة كل هذا؟ تبدأ الحكاية "بقال الناسك" وهو المسند إليه أما ما يلى ذلك فهو المسند أو المتن الحكائى وتنتهى بالتعقيب الذى يعيد السرد إلى سياق علاقة بيدبا والملك. يمثل فعلا السرد "قال" و "زعموا" قناعاً يتخفى وراءه واضع الكتاب فتزداد المسافة بينه وبين المتن الحكائى وتختفى الدافعية وتتحول المقولات الخاصة إلى مقولات عامة ترد من جهات عدة تستهدف المتلقي/ الضيف المستسلم للقهر المعرفى الذى يمارسه الناسك. حتى فى التبرير النهائى للسرد يعود الناسك إلى الاقتباس من مصادر مجهولة: "فإنه قد قيل: يعد جاهلاً..." فيتحول الخبر إلى أثر ووجهة النظر إلى حكمة متواترة.

تشتمل حكاية الغراب والحجلة على استعارة محورية وتناظر واضح بين تعلم اللغة وتعلم المشي، وكذا على نظرية فى تعلم اللغة مفادها أن المرء حين يتعلم لغة أجنبية يمر بمرحلة بين بين، يتحدث لغة ليست هى لغته الأم ولا هى اللغة الأجنبية،

لغة تتداخل فيها المفردات والأصوات والتراكيب اصطلح المتخصصون فى اكتساب اللغة وتعلم اللغات الأجنبية على تسميتها Interlanguage- لغة بين لغتين. هذه هى "الحقيقة" الموضوعية التى نجدها فى رواية الناسك. لكن الأسوياء لا يتوقفون عند هذه المرحلة بل يتجاوزونها إلى مراحل متفاوتة من إجادة اللغة الأجنبية تقترب من الكمال أحياناً مع أو بدون الاحتفاظ باللغة الأم" [1].

لقد وجد الناسك فى فشل الغراب فى تعلم مشية الحجلة ضالته، وجد فيه حجة لتمرير مقولته المحورية التى تشبه فى تعطيلها الطموح الإنسانى مقولات دارجة من مثل "من فات قديمه تاه" و"اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش" و"عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة". لم يلتفت الناسك إلى حقيقة الاختلاف الجوهرى بين الذكاء الحركى (إتقان مشية مغايرة) والذكاء اللغوى (تعلم العبرانية) ولا إلى الفروق الشاسعة بين قدرات الغراب وقدرات الإنسان. كذلك تبنى الناسك موقفاً سلوكياً من تعلم اللغة. نجد ذلك فى استخدامه فعل "راض" الذى يعنى الممارسة وتطويع النفس؛ لكن غرابه كان سريع اليأس قليل الحيلة، تعجل فى إقدامه وتعجل فى إحجامه. يلاحظ هذا فى كثرة "الفاءات" التى تفيد التعاقب مع السرعة: "فلم يقدر.. فانصرف.. فلم يحسن".

تغاضى الناسك عن هذا كله وظل يلح على رسالته، تلك الرسالة التى تتردد فى حكاية الغراب والحجلة وفى تعليق الناسك عليها: "وإنما ضربت لك هذا المثل"

(1)Mckay, S. L. & Hornberger, N. H. (1996). Sociolinguistics and Language Teaching. Cambridge: Cambridge University Press

وفى الحكمة العرجاء مجهولة المصدر: "يعد جاهلاً من حاول من الأمور مالا يشاكله..." . هذه الأجزاء الثلاثة- الحكاية المتن والتعليق والحكمة- هى نصوص متوازية متكافئة دلالياً، أقنعة مختلفة تخفى وجهاً واحداً وتجنب الحكاية والنص والوقوع فى شرك التكرار دون تجديد- على الأقل من ناحية الشكل.

ولعلنا لاحظنا أن الأجزاء الثلاثة المشار إليها تتمحور حول أفعال لغوية: "زعموا" و"ضربت .. هذا المثل" و"قيل". "قيل" مبنى للمجهول و"زعموا" لا تختلف عنها كثيراً رغم توافر الفاعل- واو الجماعة. كلاهما ينسجم مع "طبيعة السرد القائم على التسلسل الزمنى الذى يأتى من الخارج، أو عن طريق حياد المؤلف المزعوم القائم على اصطناع ضمير الغائب" "وقد أجمع نقاد الرواية الحداثية أو كادوا على أن ضمير الغائب، والماثل هنا فى شكل زعموا المقفعية، ليس إلا دلالة حتمية على نفى الوجود التاريخى وإثبات الصفة الخيالية الخالصة للعمل الأدبى بعامة والعمل السردى بخاصة" [1]. كما أن فى تغييب الفاعل-ستراً أو تجهيلاً- تبرئة لساحة الراوى وكسراً لقيود الزمان والمكان مما يضفى على الخبر خلوداً وديمومة وعمومية لا تحظى بها الأخبار الموثقة المحدودة بسياق تاريخى معين.

من ناحية أخرى تضفى "ضربت.. هذا المثل" على المتن الحكائى قداسة وقوة لأنها فى تناص واضح مع الكتب المقدسة التى يستأثر فيها الخالق عز وجل والرسل وصفوة الحكماء بضرب الأمثال للناس ترغيباً أو ترهيباً لعلهم يقدمون أو يحجمون .

(١)عبد الملك مرتاض: فى نظرية الرواية. **عالم المعرفة**. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨، ص١٦٦.

إن الناسك يلقى بعبء الخبر على غائبين فى "زعموا" و "قيل" ويصطفى لنفسه قداسة وهيمنة ضرب الأمثال، إذ نجد في: "ضربت لك هذا المثل" بنية فاعلية صريحة تتكون من فعل ماض مثبت مكتمل ثم ضمير المتكلم (الفاعل) ثم المخاطب المستسلم مقهوراً ومضمراً ومجروراً ثم المفعول به (اسم الإشارة مع البدل- المثل).

هكذا تلعب اللغة دورها المهم فى تشكيل حياة الشر، ليس فقط بوصفها سبباً للتمايز الاجتماعي، بل بوصفها كذلك آلة حرب معرفية ووسيلة من وسائل توزيع القوة والهيمنة فى المجتمع وفى الخطاب وكذا تمرير الأيديولوجيات وإعادة إنتاج قيم الطبقة السائدة. فإذا عدنا إلى الحكاية وجدنا تناظراً بين سياقين: سياق الغراب الذى يسعى إلى تعلم مشية الحجلة وسياق الضيف الذى يسعى إلى تعلم لغة الناسك:

الغراب ..... الضيف
مشية ..... لسان
الحجلة ..... الناسك

بين هذين السياقين- كما أشرنا- علاقة تكافؤ، فالضيف يشبه الغراب بينما يشبه الناسك الحجلة ، وهناك تشابه بين اللغة و المشي. لكن التشابه الأخير تشابه مراوغ، فالناسك يضرب مثل المشى للغة،وهو بذلك يقلل من قدر ضيفه، لأن اللغة معرفة و المشى حركة، عقل وجسد، والعقل أعلى مكانة من الجسد لأنه مديره ومخطط حركاته و أفعاله. هذا مثال آخر لما أشرنا إليه من قبل من علاقة القوة والهيمنة- الاجتماعية والمعرفية- بين الناسك والضيف.

وحين يخرج بنا النص من متن حكاية الغراب والحجلة وتعقيب الناسك عليها، يحدث تحول مهم من التصريح إلى التلميح ومن الأفعال إلى الأسماء: "تعاهدهم"، "تدبيراً"، "تنقلٍ"، "صعوبة"، "ومشقة"، "الأشياء"، "منازل"، "الخطر"، "مضادة". هذا التحول ينسجم مع علاقة القوة بين الملك وبيدبا، فالقوة المعرفية التى يتمتع بها الفيلسوف تقف فى مواجهة قوة الحكم والسيف التى يملكها الملك دبشليم.

يعمد الفيلسوف إلى التعميم وتجنب الخطاب المباشر- بخلاف ما نجد فى المتن الحكائى من قبيل "لك"، "لتعلم"، "أنك"، "تركت لسانك"- فى ربطه حكاية الغراب والحجلة بعلاقة الملك والرعية. لقد حدث انقلاب فى توازن القوى حل فيه الناسك محل الضيف والحجلة محل الغراب. لكن القصة الإطار تظل مرتبطة بالمتن الحكائى من خلال استخدام أفعل التفضيل: "أسوأ"، "ألوم". إن بيدبا ينتقد فى الولاة قلة تعاهدهم "للرعية"- من نفس الجذر الذى تشتق منه "الرعاية" و"الرعي" و"المرعى".. الخ - لأنهم يتيحون لهم بذلك "التنقل من بعض المنازل إلى بعض"- تعبير قديم عما نطلق عليه اليوم" الحراك الاجتماعي". هذا التنقل فيه "صعوبة ومشقة"، وهو يؤدى فى نهاية الأمر إلى "الخطر الجسيم" الذى يتمثل فى "مضادة الملك فى ملكه". هنا نجد مساحة بياض كبيرة: من الذى يتحمل الصعوبة والمشقة؟ ومن الذى يهدده "الخطر الجسيم"؟ لا مفر من التأويل.

من خلال حكاية الغراب والحجلة يتبدى لنا أن الناسك يطرح تصوراً عن طبيعة الإنسان- الذى لا ينتمى إلى طبقة سائدة- يجرده من القدرة على التطور

والحراك الاجتماعي، فكل ميسر لما خلق له والغراب لم يخلق ليدرج كالحجلة والضيف لم يخلق ليتكلم العبرانية كالناسك. فلماذا يكلف الغراب والضيف نفسيهما مشقة التعلم والتغير، على ما فيهما من صعوبة ومشقة؟ أما الخطر الجسيم فيظل يتردد بين الحاكم والرعية- خطر على "الكرسي" من تمرد الرعية وخطر على الرعية من بطش الجالس/ الجالسين عليه.

هل كان بيدبا يريد حقاً تهذيب أخلاق الملك الذى تعود البغى والظلم؟ وهل أسهمت حكاية الغراب والحجلة فى تحقيق هذا الهدف. تؤكد الروايات حدوث تحول جوهرى فى شخصية الملك تحت تأثير حكمة بيدبا وحكاياته، كما تؤكد الحظوة التى نالها الفيلسوف ترتيباً على ذلك التحول . وتؤكد مقدمات طبعات كليلة ودمنة وتراجم ابن المقفع أن ممثلى السلطة العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور قد اتهموه بالزندقة. كيف يتفق هذا كله مع مضمون حكاية الغراب والحجلة؟ هل هى حكاية للاستهلاك الشعبى ؟لماذا تنقلت "كليلة ودمنة" بين اللغات إذا كان تعلم اللغات الأجنبية بهذه الصعوبة التى تصورها الحكاية؟ ولماذا تغير دبشليم من البغى إلى العدل طالما أن التغير ليس سنة حميدة كما يزعم الناسك؟ فراغات وحلقات مفقودة عدة، لكن الذى يبقى لنا من الحكاية الراهنة هو أنها قمع وترهيب للرعية حفاظاً على مصالح وكيان الصفوتين: الحاكمة والمثقفة.

أية إنسانية تلك التى تصورها حكاية الناسك و الضيف و من ثم حكاية الغراب و الحجلة؟ أليست إنسانية قامعة أو مقموعة قاهرة أو مقهورة تملك كل شئ أو ترضى بالقليل تحتكر اللغة و الخطاب أو تتجنب التساؤل و الاكتشاف؟

أليست إنسانية طبقية لا ينبغى فيها أن يترك المرء طبقته إلى ما فوقها؟ ربما جاءت الحكاية من قبيل السخرية ممن لا يطمحون ولا يتطورون ولا يتمردون على واقعهم الراكد لأننا نعلم ما اتهم به ابن المقفع من دعوة للتمرد. لكن النص لا يشى بشيء من هذا بل يتركنا إزاء حالة من القمع و رفض الطموح من ناحية الناسك ومحاولة غير خلاقة تفتقد الدأب و المثابرة من قبل ضيفه.